

أضواء البيان

@ 83 { الْكَذِبُ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } . .

فهذه الآيات قد أوضحت أن الحكمة في خلقه السماوات والأرض ، وجميع ما على الأرض ، والموت والحياة ، هي أن يدعوهم على السنة رسله ويبتليهم ، أي : أن يختبرهم أيهم أحسن عملاً .

وهذه الآيات تبين معنى قوله تعالى : { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } . .

وفي هذه الآيات إيضاح لأن معنى قوله : { لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ } ، أي : دعاؤه إياكم على السنة رسله ، وابتلاؤكم أيكم أحسن عملاً ، وعلى هذا فلا إشكال في قوله : { فَقَدْ كَذَّبْتُمْ } ، أي : { مَا يَعْبُدُوا بِكُمْ * لَوْ لَا } دعاؤه إياكم ، أي : وقد دعاكم فكذبتم ، وهذا القول هو وحده الذي لا إشكال فيه ، فهو قويٌّ بدلالة الآيات المذكورة عليه .

وأما القول بأن معنى : { لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ } ، أي : إخلاصكم الدعاء له أيها الكفار عند الشدائد والكروب ، فقد دللت على معناه آيات كثيرة ؛ كقوله تعالى : { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ لَكَ دَعْوَاؤُا اللَّاهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } ، وقوله تعالى : { جَاءَتْهُمْ رِيحٌ عَصِيفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعْوَاؤُا اللَّاهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } . . وقد أوضحنا الآيات الدالّة على هذا المعنى في سورة (بني إسرائيل) ، في الكلام على قوله تعالى : { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْأُبْحَانِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ } ، وهذا القول وإن دلّت عليه آيات كثيرة ، فلا يظهر كونه هو معنى آية (الفرقان) هذه . .

وأما على القول بأن المعنى : ما يصنع بعذابكم ، { لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ } معه آلهة أخرى ؛ فقد دلّت على معناه قوله تعالى : { مَا يَفْعَلُ اللَّاهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَعَامَنْتُمْ } . .

والقول الأوّل الذي هو أشهر الأقوال وأكثرها قائلًا ، وهو أن المعنى : { لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ } ، أي : عبادتكم له وحده ، قد دلّت عليه جميع الآيات الدالّة على ما يعطيه اللاه لمن أطاعه ، وما أعدّه لمن عصاه ، وكثرتها معلومة لا خفاء بها . .

واعلم أن لفظة { مَا } ، في قوله : { فُلْ مَا يَعْبُدُوا بِكُمْ رَبِّي } ، قال بعض أهل